مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد 07 ،العدد 03 ديسمبر ،2021 ص - ص:79-94

استوزار الذمي في دولة بني العباس .

Giving the ministry to non-Muslims of Bani Al-Abbas.

سمير طبي(*)
جامعة باتنة 1، (الجزائر)، tobbi.badar@gmail.com

تاريخ الاستلام: 21 /2021/06 تاريخ القبول:13 /2021/12 تاريخ النشر: 05 /2022/02

الملخص: يتناول المقال الدور الذي لعبه الوزراء النصارى في البناء المؤسساتي للدولة الإسلامية من خلال ما أضفوا على خططها من المهنية والتخصص إلى حد استطاعت الدولة بسط نفوذها على أقاليمها المترامية ومواردها المتعاظمة.
وبقدر ما كانوا عقلها وعينها، بقدر ما زادتهم هذه المناصب ترفعا وتكبرا وثراءً إلى درجة صارت العامة تستعظم مناصب النصارى وتشعر بالنقص حيالهم وتقر بثرائهم وسببا في ثورتهم وغضبهم.

الكلمات الدالة: الوزارة؛ الدولة العباسية؛ غير المسلمين؛ المسلمين؛ نظام الحكم.

Abstrac: The article deals with the roleplayed by Christian ministers in the institutional construction of the Islamic State through the professionalism and specializationthey have added to the extentthat the state has extendedits influence over itssprawlingterritories and growingresources, and the more they havegrowntheirmind and eye, the more these positions have increased, they are so arrogant and richthat the public isincreasing the positions of Christians and feeling inferior to them and acknowledgingtheirwealth and caused in theirrevolution and anger.

Keywords: keywords; the ministry ; the Abbasid state ; non-Muslims; the ruling system

*المؤلف المرسل.

1. مقدمة:

بعد أن تم نقل الخلافة من دمشق إلى بغداد، انتقلت من خلالها الدولة الإسلامية في العهد العباسي من دور الفتوح إلى ميدان الحضارة، فلم يتردد خلفاء بني العباس في محاكاة حضارة الفرس والروم في تنظيم دولتهم وتجاوز الواقع العربي البسيط في تدبير أمور الخلافة باستخدام نظم إدارية وخطط سلطانية على غرار نظام الوزارة[1]، ولا سيما بعد أن ورث العباسيون دولة مترامية الأطراف كثيرة الخيرات متنوعة النحل والملل.

ولإدارة هذا الإقليم الواسع والتحكم في موارده المتعاظمة استعان خلفاء بني العباس بعدد كبير من المتصرفين والوزراء من آهل الذمة ولاسيما من النصارى، من هنا تأتي إشكالية موضوعنا: **إلي إي حد استطاع هؤلاء الوزراء النهوض بأعباء الدولة و تدبير شؤون الرعية؟**

- إلى كم ضرب انقسمت الوزارة في العصر العباسي؟ وهل يجوز استوزار الذمي؟
- ما مدى استفادة الدولة من صنعتهم؟
- إلى أي حد يمكن القول أن ثورة العامة ضدهم سببها تمكنهم من مفاصل الدولة واستئثارهم بمواردها؟

ويهدف المقال ابراز سياسة التسامح الديني و انفتاح الدولة العباسية علي مختلف رعاياها دون تعصب، مما ساعد علي تمكين غير المسلمين من تقلد مناصب سامية و نوعية في الدولة الاسلامية علي غرار خطة الوزارة، و كذلك تسليط الضوء علي دورهم في النهوض بالنظام المؤسساتي للدولة العباسية و تحكمهم في مفاصلها و استئثارهم بمواردها.

وسنتبع في دراستنا هذه المنهج التاريخي بسرد بعض الأحداث التاريخية، إضافة الى المنهج الوصفي في وصف صفات أهل الذمة وسلوكهم.

وللإجابة على هذه الإشكالية السابقة اتبعنا الخطة التالية:

2. التعريف بمصطلحي الذمة والوزارة

1.2. الذمة في اللغة: عرّفها ابن منظور[2]: العهد والأمان، والذِمامة: بالكسر الحق والحرمة، رجل ذميّ معناه: رجل له عهد، وفي الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: "يسعى بذمتهم أدناهم"[3] وتفسير الأمان، وفي التنزيل العزيز قوله تعالى: (لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة)[4]، الإل: الحلف، والذمة العهد.[5]

والذمي شرعا: الكافر الذي يدخل في ذمة الدولة الإسلامية بصفة مؤبدة بعد إعطاءه الجزية[6] والتزام أحكام الملة[7]، وأهل الذمة هم أهل الكتاب الذين يعيشون مع المسلمين في ظل الحكم الإسلامي وقيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم.[8]

2.2. الوزارة: عرّفها ابن خلدون فقال:[9] "هي أم الخطط السلطانية والرتب المملوكية، لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة"، واختلف في اشتقاق معنى لفظ الوزارة إلى ثلاثة أوجه: الأول، أن هذا اللفظ مأخوذ من الوزر بفتح الواو والزاي وتعني الملجأ، وأن الوزير هو ملجأ الملك من حيث لجوءه إلى مشورته ورأيه ومعونته، وقد يكون سبب هذه التسمية لجوء الرعية للوزير لقضاء الحوائج.[10]

والثاني أن هذا اللفظ مأخوذ من الأزر وهو الظهر وهو للملك كالظهر يشده ويقويه.[11]

الثالث: أن هذا اللفظ مأخوذ من الوزر بكسر الواو وهو الثقل، لأنه يحمل عن الملك أثقاله[12]، وقال القرطبي[13]: الوزير الثقل والمثقل والجمع أوزار.

ويتحصل مما سبق أن كلمة وزير جامعة لهذه المعاني كلها، فالوزير عون على الأمور وشريك في التدبير وظهير في السياسة وملجأ عند النازلة، وقد أحسن الماوردي في وصف طبيعة منصب الوزير حين قال[14]: "وأنت أيها الوزير في منصب مختلف الأطراف تدبر غيرك من الرعايا وتتدبر بغيرك من الملوك، فأنت سائس ومسوس تقدم بسياسة رعيتك وتنقاد لطاعة سلطانك، فتجمع بين سطوة مطاع وانقياد مطيع".

وقد عرفت الدولة الإسلامية نظام الوزارة في العصر العباسي بعد أن استفحل الملك وعظمت مرتبه وارتفعت، وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة[15]، وفي هذا يذكر صاحب الفخري[16]: "الوزارة لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فأما ما قبل ذلك فلم تكن متقنة القواعد ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجة والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى الوزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيرا".

وعليه، فإن الوزارة بمعناها الاصطلاحي الخاص كانت معروفة ومعمولا بها في العصر الأول من الدولة الإسلامية، فكان الكاتب والمشير يؤديان وظيفة الوزير الاصطلاحية، خاصة في العهد النبوي والراشدي، وأن مهام الكاتب في دولة بني أمية قد انتقلت إلى الوزير مع وظائف أخرى في الدولة العباسية.

3. أقسام الوزارة:

ظل منصب الوزير يعظم تارة ويضعف تارة أخرى إلى درجة يصعب فيها نفوذ الخليفة نفسه، وقد حاول ابن خلدون رد سبب انقسام الوزارة وإيجاد منصب وزير التفويض فقال: "ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتداول فيها الاستبداد؛ الوزارة مرة والسلطان أخرى، وصار الوزير إذا استبد محتاجا إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصبح الأحكام الشرعية وتجيء على حالها، فانقسمت الوزارة حينئذ غلى وزارة التنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه، وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليها".[17]

وواضح من كلام ابن خلدون أن سبب ظهور وزارة التفويض هو الاستبداد على الخليفة، وإن كان تطاول بعض الوزراء على الخليفة ضعف هذا الأخير، فوزارة التفويض في عهد هارون الرشيد (170هـ-193هـ/786م-808م) على الأقل لم تكن عن ضعف بل عن طواعية.

فوزارة التفويض: تقوم على تصرف الوزير المطلق في شؤون الدولة بعد أن يكون الخليفة نفسه فوّض إليه ذلك، و من هنا جاءت التسمية، بحيث يجوز للوزير أن يحكم بنفسه

وأن يقلد الحكام كما يجوز ذلك للخليفة والنظر في المظالم والتصرف في أموال بيت المال وتولي الجهاد، وبذلك فهي تجمع بين كفايتي السيف والقلم، ويشترط أن يكون الوزير من أهل الكفاية.[18]

أما وزارة التنفيذ: ويطلق عليه الوزارة المقيدة، حيث يتقيد الوزير فيها ما يأمر به الخليفة، ويرجع إليه في كل صغيرة وكبيرة، فهو منفذ وليس مفوّض، لأن الرأي مقصور على رأي الإمام وتدبيره، وهذا الوزير وسيط بين الرعية والخليفة، ويتصرف في حدود ما أُمر بتنفيذه[19]، ومن ثمة فقد أجاز الماوردي تعيين الذمي في وزارة التنفيذ دون وزارة التفويض[20]، وبذلك لم يكن منصب الوزير، على أهميته في الدولة الإسلامية، حكرا على المسلمين بل أدركه عدد من النصارى وأداروا من خلاله شؤون الدولة الإسلامية.

4. شروط تقلد الوزارة:

ونظرا لأهمية منصب الوزير، فقد اشترط خلفاء بني العباس في صاحبه أن يكون ملمّا بكثير من العلوم والثقافات الموجودة في عصره إلى جانب حسن المظهر ونظافة الملبس والذكاء والفطنة وغيرها من الصفات التي تقتضيها مجالس الخلفاء وشؤون السلطنة[21]، ويسترد الثعالبي في هذا مبيّنا الشروط التي يجب توفرها في اختيار الوزراء فيقول: [22]

- أن يكون حسن العلم بالأمور الدينية لأن الدين عماد الملك.
- حسن العقل حلو اللسان بليغ القلم.
- قليل اللهو كتيم السر، صبور، صحيح الجسم، جيد الفكر.

وزاد ابن الربيع عليه[23]:

- أن يكون أمينا.
- أن يجمع بين الخشونة واللطف.
- ويعرف مداراة الجند وتأليفهم وجمعهم وتفريقهم، ويكون بصيرا بالمكائد الحربية وحفظ البلاد والقلاع.

5. وزارة الذمي في دولة بني العباس:

أبرز من تولى الوزارة من أهل الذمة أبو العباس[24] كاتب المعتصم قبل الخلافة أخذ له البيعة ببغداد وعندما كان المعتصم ببلاد الروم بعد وفاة أخيه المأمون (212هـ/827م)، فكان يدير أمور المعتصم ويكتب على لسانه ما أحب، حتى قدم المعتصم الخليفة إلى بغداد عام 218هـ/833م، فشكر له صنيعه هذا ففوض له الوزارة ورد أموره كلها إليه، وصارت الدواوين كلها تحت يده واستقل بالأمور، بل صار الفضل بن مروان صاحب الخلافة.[25]

فكان يبخل عن الخليفة ما يحتاج إليه من أموال ويرد طلبه بل يتطاول عليه أحيانا بأجوبة غليظة، وفي هذا يذكر ابن داود: "كنت أحضر مجلس المعتصم فكثيرا ما كنت أسمعه يقول للفضل بن مروان: احمل إلي كذا وكذا من المال، فيقول: ما عندي، فيقول: فاحتلها من وجه من الوجوه، فيقول: ومن أين أحتالها؟ ومن يعطيني هذا القدر من المال؟ وعند من أجده؟ فكان ذلك يسوءه؟".[26]

كما كان يثير نقمة العامة ضده، بسبب ترفعه ومنع الأعطيات من المال التي يأمر الخليفة بها من يفد عليه، فقد جلس يوما لقضاء أشغال الناس ورفعت إليه قصص العامة فرأى في جملتها رقعة مكتوب عليها:

تفرعنت يا فضل بن مروان فاتعظ فقبلك كان الفضل والفضل والفضل[27]

ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم أبادهم الأقياد والحبس والقتل[28]

ويذكر أيضا أن إبراهيم المعروف بالهفي –وكان مضحكا– يتردد على مجلس الخليفة أمر له المعتصم بمال وتقدم إلى الفضل بن مروان لينالاه، فلم يعطه الفضل، فاشتكاه عند الخليفة قائلا: "إنما لك نم الخلافة الاسم، والله ما يجاوز أمرك أذنيك؛ وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذي يأمر فينفذ أمره من ساعته، فقال له المعتصم: وأي أمر لي لا ينفذ؟ فأخبره بالأمر"، فأقدم على عزله وأمر بحبسه بمعية كاتبه دليل بن يعقوب النصراني، وعيّن مكانه محمد بن عبد الملك بن الزيات.[29]

أما سليمان بن وهب[30]، فقد استوزره المهتدي بعد سنة من خلافته عام 256هـ/869 م ولُقب بالوزير حقا ،لأن من كان قبله كان غير مستحق بالوزارة ولا مستقل

بها[31]، تولى إدارة أمور الدولة بالقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب والنظر في رقاع المظالم والتوقيع عليها[32]، كما نظم دواوين الخلافة حيث كان يفيد إليه الكتاب فيقفهم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم لكل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريده منه وتعرض عليه كتبهم ويوقع عليها.

وكان سليمان إذا ولي عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل له مالا إلى أن يسلم عمله، حرصا على تسلم عمله، حرصا على تسلم الأعمال في حينها مما جعله يكسب ثقة الخليفة ويثني عليه، فكان كلما عرض الكتب بين يدي الخليفة المهتدي فقال له وقد قرأها: "أحسنت يا سليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل"[33].

كما تولي سليمان الوزارة سنة 263هـ/876م [34] واستأثر بأمور الخلافة وزادت ثروته وعظمت بما كان يأخذه من رواتب ضخمة وإقطاعات وضياع، على غرار دار المخزن التي جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة 320هـ/932م [35]، وكان يتخذ مثل الخليفة حرسا على باب داره، ويركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان، ففي سنة 264هـ/877م خرج من بغداد إلى سامراء ومعه أخوه الحسن بن وهب وشيعة عامة القواد، فلما صار إلى سامراء غضب عليه الخليفة المعتمد وحبسه وصادر داره[36]

لعل ما بلغه من الثراء والحظوة أن أستخلص منه الخليفة المعتمد وابنه عبيد الله نحو مليون دينار[37]ثم صالحهما على تسعمائة ألف دينار[38]، وظل سليمان بن وهب يتنقل بين دواوين الخلافة والوزارة إلى أن توفي عام 272هـ/885م في حبس الموفق.[39]

ثم آلت الخلافة إلى ابنه عبيد الله سنة 278هـ/891م ، حيث استوزره المعتمد بالله واستولى على جميع أموره ويكفيه يجلسه بين يديه[40] مدة عشرين سنة إلى حين وفاته سنة 288هـ/ 900م[41].

وكان عبيد الله واحد دهره سياسة وتدبيرا وضبطا لأمور الدولة وفيه قال صاحب الفخري: "... من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب كان بارعا في صناعته حاذقا ماهرا لبيبا جليلا "[42]، وقد رفع يوما إلى المعتضد أن قوم يجتمعون ويحرضون وقد تفاقم فسادهم فرمى بالرقعة

إلى وزيره عبيد الله بن سليمان فقال:" الرأي صلب بعضهم وإحراق بعضهم"، غير أن الوزير لم يحاور خليفته في غضبه وقلل من خطورة الأمر فقال: والله لقد أطفأت لهيب غضبي بقسوتك هذه فقلبتني إلى اللين، وإن أحد الرعية لا يقوم بمحظور إلا لظلم قد لحقه أو لحق بجاره أو مصيبة نالته فامتنع عن معاقبتهم فصلحت الأحوال.[43]

وفي سنة 248هـ/862م عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر وأمر بإنشاء كتاب بذلك يقرأ على الناس، فخوفه عبيد الله بن سليمان من اضطراب العامة وأنه لا يأمن أن تكون فتنة[44].

ولعل أهم ما يستخلص من هذه الشواهد والمواقف قدرته الفائقة على التفاعل والتواصل مع الخليفة ورعيته، فكان يلتمس للرعية أعذارا للحفاظ على أمن الخلافة واستقرارها، كما كانت تدل في الوقت نفسه على رجاحة عقله وسعة أفقه في تدبير الأمور وعلمه بطباع الرعية، والتي كانت سببا في تجنيب الخليفة العديد من الفتن والاضطرابات.

وكان يقف على كل الرسائل التي تفد على الخليفة أو تصدر منه إلى عماله أو رعيته فينظر فيها ويصحح ما يوجب تصحيحه، فلما عزم الخليفة المعتضد أن يكتب كتاب ويشهد فيه عليه العدول، كتب جعفر بن محمد بن ثوابة صاحب ديوان الرسائل: " في صحة من عقله وجاز الأمر له وعليه"، وعندما عرضت النسخة على عبيد الله بن سليمان قال: هذا لا يجب أن يقال للخليفة، وضرب عليه وكتب: "في سلامة من جسمه وأصالة من رأيه".[45]

كما كان حازما في تدبير أمور الخلافة، فكانت الرقاع توضح بين يديه ولا يمل في الفصل فيها والرد على أصحابها، فكان إسماعيل القاضي[46]، يعرض عليه رقاعا في حوائج الناس فكلما انتهى من واحدة قدم له أخرى وخشي أن يكون قد أثقل عليه، فقال عبيد الله :" يا أبا إسحاق كم تكون إن أمكن وإن جاز وإن سهل من قال لك أنه يجلس هذا المجلس ثم يتعذر عليه فعل شيء على وجه الأمور فقد ذلك، هات رقاعك كلها في موضع واحد، فأخرجها إسماعيل وطرحها لحضرته فوقع فيها، فكانت ما وقع فيه قيل نحو ستين رقعة".[47]

ولم يقتصر دوره على إدارة شؤون الخلافة بل كان الخليفة المعتضد يستدعيه في أوقات خلوته ويستأنس بحديثه ويطلعه على أموره الخاصة، فقد حزن الخليفة يوما على جارية عنده كان يحبها وامتنع عن أكل الطعام والشراب، فعاده الوزير عبيد الله و وساه بكلمات أعادت له ابتسامته وحيويته، ومما يذكر عنه قوله:" مثلك يا أمير المؤمنين تهون عليه المصائب لأنه يجد في كل فقيد خلفا ويقدر ما يريد، والعوض منك لا يوجد"، وكأن الشاعر قد عناك:

يبكي علينا ولا نبكي على أحد إنا لأغلظ أكباد من الإبل

فضحك المعتضد وعاد إلى عادته[48].

ورغم محاسنه في تدبير أمور السلطة والنهوض بأعبائها فقد أطلق يده في التصرف في أموال الدولة وغلال السلطان، وكان سببا في ثراء حاشيته ومن لزمه بصحبته، فقد أمر كاتبه أن يبيع عبد الله بن عوف[49]المائة ألف كر[50] بنقصان دينارا واحدا مما قررت به السعر مع التجار، وبعه له عليهم بالسعر المقرر معهم وطالبهم بأن يعجلوا له فضل السعرين اليوم، فقال عبد الله بن عوف:" قمت من المجلس وقد وصل إلى مئة ألف دينار في بعض اليوم وما عملت شيئا "، وصار يعرض عليه كل يوم ما يصل إليه بما فيه ألوف الدنانير ويتوسط الأمور الكبار ويداخل في المكاسب الجليلة حتى أثري ثراء فاحشا وبلغته النعمة منه الفيض العميم[51].

كما كان وفيا لملته النصرانية ففي سنة 284هـ/897م قام نصراني بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فاجتمع أهل بغداد وصاحوا بأبا القاسم وطالبوه بإقامة الحد عليه فلم يفعل، فأجمعوا على التوجه إلى دار الخليفة الذي بدوره وجه المدعين إلى القاضي أبي عمر[52].

ولعل هذه الحادثة تبين لنا بشكل واضح مدى تمكن المتصرفين النصارى من الدولة الإسلامية ومؤسساتها إلى درجة تعطيل إقامة الحد، ورغم ما قيل عن عبيد الله من أحكام فإن مكانته لدى الخليفة لم تهتز ولم يتنح عن الوزارة إلا بوفاته سنة 288هـ/900م وهذا قلما يحدث فعظم موته على المعتضد وجعل ابنه أبا الحسن القاسم[53] وزيرا له[54].

نهض القاسم بأعباء الخلافة عند موت المعتضد عام 289هـ/901م فأخذ البيعة للمكتفي الذي كان غائبا بالرقة، وضبط له الخزائن فعظم عنده فأستوزره ولقبه والي الدولة[55]

وكان كثير الظلم فاسد الإعتقاد حمل المكتفي على قتل بدر الحمامي[56] صاحب أحمد بن طولون[57]، ولعل الشيء نفسه الذي حمل ابن الرومي[58]على هجوه وذكره بما يكره فأطعمه – القاسم– طعاما مسموما في مجلسه وكان سببا في موته[59]

كما كان فاحش الثراء حيث كان ضياعه تغل في العام سبعمئة ألف دينار[60]، ويتصرف في أموال الدولة بغير وجه حق حتى قيل أنه سدد نذرا قطعه لأستاذه ومؤدبه إبراهيم بن السرى الزجاج[61] فقد روى عن هذا الأخير مخاطبا الوزير قبل تقلده الوزارة: " إن بلغك الله مبلغ أبيك ووليت الوزارة ماذا تصنع بي؟ فيقول: ما حببت، فأقول له: أعطيني عشرين ألف دينار".

وفعلا عندما ولي الوزارة أجلسه للناس يأخذ رقاعهم للحوائج الكبار مقابل أجر، ويذكر الزجاج: كنت أعرض عليه كل يوم رقاعا فيوقع فيها الي ويقول: كم دفع لك على هذا؟ فأقول: كذا وكذا، فيقول: غنيت هذا يساوي كذا وكذا ارجع فأسترد، ولا أزال أماكسهم ويزيدوني حتى فاق الكسب حد النذر[62].

وما يجعل لهذا الأمر أن الوزير قد أطلق يده وحاشيته في مال العامة والدولة دون وازع أخلاقي أو خوفا من غضب الخليفة مما يدل على استئثارهم بأمور الدولة وتمكنهم منها، كما زاد نفوذ النصارى في دار الخلافة في عهد الوزير صاعد بن مخلد (ت 276هـ/889م) وزير المعتمد، الذي لم يتنكر لملته وأقاربه، حيث فتح لهم أبواب الوزارة وتقلدوا المناصب الجليلة فيها، منهم أخوه عبدون بن مخلد النصراني الذي سمح له وضعه في الوزارة بأن يأمر بإعادة بناء دير كليلشوع الواقع على نهر عيسى إلى الجنوب الغربي من بغداد سنة 271هـ/884م بعد تهديمه من قبل شطار بغداد[63].

وفي سنة 369هـ/979م انفرد نصر بن هارون بالوزارة في عهد الأمير عضد الدولة بعد وفاة المظهر بن عبد الله الذي كان يقاسمه الوزارة، وقد فوضه الخليفة على القيام بأعمال فارس وتدبير أمورها لمكانته منه، وظل متوليها حتى توفي الأمير عضد الدولة سنة 372هـ/982م ، وكان أبو الريان أحمد بن محمد ينوب عن نصر بن هارون في ديوان عضد

الدولة ببغداد[64]وقد بلغت مكانة الوزير لدى عضد الدولة أن سمع له الإحسان إلى بني ملته من بيت مال المسلمين، من إطلاق المال للفقراء النصارى وعمارة البيع والأديرة[65].

ولما تقلد صمصام الدولة[66]الإمارة بعد وفاة عضد الدولة كتب لنصر بن هارون يستدعيه إلى بغداد ليتقلد الوزارة[67]، غير أن الأمير شرف الدولة بن عضد الدولة خرج طاعة أخيه صمام الدولة وسار إلى فارس واستولى عليها وقبض على نصر بن هارون ونكل به وقتله[68].

ولعل سبب حقد شرف الدولة على وزير أبيه، أن هذا الأخير كان يسئ معاملته في حياة أبيه – عضد الدولة–، وقيل أن حاشية شرف الدولة كانوا يحقدون عليه لمكانته الرفيعة في الدولة فأخذوا يغلون صدره عليه خاصة بعدما استولى على بلاد فارس.[69]

6. خاتمة:

وعليه فبقدر ما نهض هؤلاء الوزارة النصارى بأعباء الدولة الإسلامية، بقدر ما حجب بعضهم الخليفة عن رعيته، وصاروا القيمين الحقيقيين على الدولة والمنتفعين بمقدراتها، مما زاد في بؤس وسخط العامة، حيث أظهروا الشماتة عند موت الوزير القاسم عام 291هـ/903م وقال فيه أحدهم:

فلا رحم الله تلك العظام ولا بارك الله في وارثه[70]

فضلا عن التحاسد الذي كان بينهم وبين رجال الدولة من المسلمين الذي تحول إلى تنافس وصراع على منصب الوزارة مما أدى إلى اضطراب الوضع السياسي وعدم استقرار نظام الحكم.

كما استطاعت الدولة الاسلامية التوفيق بين المتصرفين و الوراء من غير المسلمين و التشريعات الاسلامية التي كانت تنظم و تسير الخطط السلطانية .

وما يقال عن فضل نخب اهل الذمة في البناء المؤسساتي للدولة العباسية ، ففي الحقيقة ان هذا الفضل مشترك فما كان لهؤلاء القيام ما قاموا به لولا المكانة التي حظيو ا بها و الحرية التي عاشوا في كنفها و رعاية الخلفاء لهم.

ان ما بلغته الحضارة الاسلامية في العصر العباسي من تطور و نضج ورقي هو بالأساس ناتج عن تنوع الجسم الاجتماعي و تقبل الغير و التسامح الديني الذي بلغ ارقي مظاهره و صوره و بعد نموذج حي يجب ان يتطلع اليه عالم اليوم.

7. هوامش:

[1]- غوستاف لوبون: حضارة العرب، ط2، تر عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، 1948، ص178.

[2]- لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج12، ص221. الفيروز آبادي : القاموس الميط، دار العلم للجميع، بيروت، ج4، ص115.

[3]- البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، الباب 10، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، م2، ص401.

[4]- سورة التوبة، الآية 10.

[5]- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج8، ص79.

[6]- الجزية: ضريبة الرأس وهي الأموال المأخوذة من أهل الذمة جزاء المنة عليهم بالإعفاء من القتال. الماوردي: الأحكام السلطانية، (د.ت)، ص183.

[7]- الكاساني: كتاب بدائع الضائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، م7، ص112.

[8]- أحمد الشنتناوي وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، (د.ط)، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، م9، ص390.

[9]- المقدمة، ط1، دار صادر، بيروت، 2000، ص146.

[10]- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص28. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تعليق وشرح محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج5، ص421.

[11]- الماوردي: المصدر السابق، ص28.

[12]- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (د.ط)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1933، ج6، ص93.

[13]- الماوردي: المصدر السابق، ج10، ص230.

[14]- أدب الوزير، تح محمد سليمان داود، فؤاد عبد المنعم، (د.ط)، الجامعات المصرية، الإسكندرية، (د.ت)، ص47.

[15]- ابن خلدون: المقدمة، ص177.

[16]- ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (د.ط)، دار بيروت، بيروت، 1966، ص150.

[17]- المقدمة، ص178.

[18]- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص28.

[19]- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص29.

[20]- أدب الوزير، ص36

[21]- الماوردي: كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة، تح رضوان السيد، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص107.

[22]- تحفة الوزراء، تح سعيد أبو دية، ط1، دار البشير، عمان، 1993، ص91.

[23]- سلوك المالك في تدبير الممالك، تح حامد عبد الله ربيع، (د.ط)، دار الشعب، القاهرة، 1980، ج2، ص272.

[24]- هو أبو العباس الفضل بن مروان بن ماسرجس بن البردان، نصراني النحلة قليل المعرفة رديء السيرة، استوزره المعتصم ثلاث سنوات ثم عزله، خدم عدد من الخلفاء، مات في أيام الخليفة المستعين عام 250هـ/864 م ، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1977، ج4، ص .

[25]- الكتبي: عيون التواريخ، تح عفيف نايف حاطوم، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، 1996، ص434.

[26]- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ج5، ص215.

[27]- ويقصد بهم: الفضل بن يحي بن خالد البرمكي والفضل بن سهل والفضل بن ربيع. ابن طباطبا: المصدر السابق، ص231.

[28]- الجاجرمي: نكت الوزير، تح نبيلة عبد المنعم دود، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع، بيروت، 2000، ص57. ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص54.

[29]- الطبري: المصدر السابق، ج5، ص214.

[30]- هو سليمان بن وهب بن سعيد الحارثي، أبو أيوب، من كبار الكتاب، كتب للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة، ثم تولى الوزارة للمهتدي ثم للمعتمد سنة 263هـ/ توفي عام 272هـ/ ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص415.

[31]– الأصفهاني: الأغاني، تح عبد الستار أحمد فراج، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ج23، ص4.

[32]– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج3، ص131.

[33]– الأصفهاني: المصدر السابق، ج3، ص9.

[34]– ابن الجوزي: المنتظر في تاريخ الملوك والأمم، تح محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، (د، ط) دار الكتب، بيروت، (د، ت)، ج 12، ص 189,

[35]– مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، إعتنى بتصحيحه أمدروز، (د، ط)، مكتبة المثني، بغداد، (د، ت)، ج5، ص410.

[36]– الهمداني: تكملة تاريخ الطبري، تح ألبرت يوسف كنعان، ط2، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1961، ص 75.

[37]– المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرحه مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت (د، ت)، ج4، ص121.

[38]–الطبري: المصدر السابق، ج5، ص 520.

[39]– ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 203، ج3، ص 364.

[40]– ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد، صححه قيصر قدح، (د، ط)، دار الفكر، بيروت، (د، ت)، ج4، ص 50.

[41]– ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 249.

[42]– نفسه.

[43]– ابن الجوزي: المصدر السابق، ج12، ص 325.

[44]– الطبري: السابق، ج5، ص 619.

[45]– ابن النجار البغدادي: المصدر السابق، ج4، ص 51.

[46]– هو أبو اسحاق بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد الأزدي القاضي من أهل البصرة، ولي القضاة في خلافة المتوكل وظل قاضي بغداد سبعة عشر سنة توفي عام 282هـ/، ابن الجوزي: المصدر السابق، ج12، ص 346.

[47]– ابن النجار البغدادي: المصدر السابق، ج4، ص 55.

[48]– ابن الجوزي: المصدر السابق، ج12، ص 326.

[49]– هو أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن مرزوق بن عطية بن أبي عوف إختص بالوزير عبيد الله وكانت بينهما مودة وله عنده منزلة، وكان يستضيف عبيد الله في داره قبل تقلد الوزارة، المصدر نفسه، ج13، ص 94.

[50]–كر: كيل معروف يسع أربعة وعشرين صاعا، التنوخي: نشوار المحاضرة في أخبار المذاكرة، تح عبود السلجي المحامي، ط2، دار صادر، بيروت، 1978، ج1، ص 80.

[51]– ابن النجار: المصدر السابق، ج4، ص 54.

[52]– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح عمر عبد السلام، ط3، دار الكتاب، بيروت، (د، ت)، ج7، ص 485.

[53]– هو القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، كان سيء السيرة وزر للمعتضد والمكتفي، ولقبه المكتفي عميد الدولة، توفي عام 291هـ/903م.

ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 251.

[54]– ابن الأثير: المصدر السابق،ج7، ص 510.

[55]– الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط3، تح عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1998، ج19، ص 231.

[56]– بدر الحمامي صاحب بن طولون حاكم مصر وقائد جيشه، شارك بجانب جيش المكتفي في وقعة القرامطة، ابن العماد الحنبلي: شذوات الذهب في أخبار من ذهب، (د، ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د، ت)، ج2، ص 202.

[57]– الطبري: المصدر السابق، ج5، ص 641.

[58]– هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريح المعروف بابن الرومي، شاعر مشهور من موالي بني عباس إشتهر بالتوليد في الشعر توفي عام 335هـ/ ابن النديم: الفهرست، تح ناهد عباس، ط1، دار قطري، الدوحة، 1989، ص 317.

[59]– ابن فلكان: المصدر السابق، ج3، ص 361.

[60]– الذهبي: العبر في خبر من غبر، تح أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، (د،ط)، دار الكتب العلمية بيروت، (د، ت)، ج1، ص 420.

[61]– هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سري بن سهل الزجاج النحوي، كان من أهل العلم والأدب، إختص بصحبة الوزير القاسم بن عبيد الله، ثم إتصل عن طريقه بالمعتضد وصار عظيم المنزلة عندهما، توفي سنة 311هـ/923م.

ياقوت الحمودي: معجم الأدباء، تح إحسان عباس، ط1، دار الغرب، الإسلامية، بيروت، ج1، ص 52.

[62]– التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 77.

[63]– الطبري: المصدر السابق، ج5، ص 591، ابن العبري: تاريخ الزمان، تر الأب إسحاق أرملة ،(د، ط)، دار النشر، بيروت، 1991، ص

[64]– مسكويه: المصدر السابق، ج2، ص 412.

[65]– ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 705.

[66]– هو صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان، ولد عضد الدولة بايعه القواد والأمراء بعد وفاة أبيه سنة 372هـ/982م، المصدر نفسه، ج9، ص 142.

[67]– أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، تصحيح هـ، ف، أمدروز، (د، ط) شركة التمدن الصناعية، القاهرة، 1916، ج3، ص 78

[68]– ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 23.

[69]– أبو شجاع: المصدر السابق، ج3، ص 82.

70– ابن حلكان: المصدر السابق، ج3، ص 362.